Journal of Alasmarya University
Volume 19, December 2013

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد التاسع عشر، ديسمبر 2013

التضمين في شعر المهدوي

د. محمد عمار محمد الأبيض*

ينتمي رفيق إلى المدرسة التقليدية الحديثة، ويستلهم مثله الشعرية من كبار زعمائها، وعلى الرغم من تلمذة رفيق المخلصة، وارتباطه الوثيق بهذه المدرسة، فإنه لم يرهق نفسه بالبحث عن سبل أخرى تصله بغيرها من المدارس.

ويرى البعض الآخر أن السبب في ذلك يرجع إلى «أن ليبيا حرمت فترة غير يسيرة من الاتصال بتراث آبائها وأجدادها السابقين في عهد الاحتلال الإيطالي، فلابد لنا من عرض التراث القديم والسير على منواله، ويرون في شعرائه أساتذة في الشعر والبيان»[1].

واستشهدوا بقول الشاعر الجاهلي[2]

ما أرانا نقول إلا معاداً أو معاراً من قولنا مكروراً

فأسلوب التضمين عرفه أسلافنا من الشعراء منذ عهد قديم وهو «أن يأخذ الشاعر شطرا أو بيتا من شعر غيره بلفظه ومعناه، ويدخله في الموضوع الذي يراه

---

* الجامعة الأسمرية.

1- محمد الصادق عفيفي، الشعر والشعراء في ليبيا ، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط 1957، ص61.

2- نفسه ص61.

ملائما ومطابقا بين أبيات قصيدته فهو أشبه بالعارية يباح استعمالها »[3]

وقد يكون التضمين من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو الآثار التاريخية، وهو ما يعرف اليوم بالتناص، والذي ينقسم بدوره إلى لفظي ومعنوي[4].

وعليه فإن أسلوب المعارضة والتضمين والاقتباس، والسير على خطى المتقدمين، لون من ألوان الفنون الأدبية التي كان يمارسها القدماء، ويفضلها كثير منهم، ويتخذونها أداة لإظهار البراعة في منافسة الشعراء الكبار أو القصائد الشهيرة.

وكان المهدوي من الشعراء المحدثين الذين سلكوا هذا الجانب، أما الأدب المعاصر فهو لا ينظر إلى هذا اللون بارتياح، لكي لا « يفقد تعبيرهم أصالته، ويصير مسخاً شائها لا هوية له »[5] وذلك لأن الأصالة والتفرد يعنيان « الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة فإنه إذا تحققت هذه الصفة تحققت الطبيعة »[6].

وأكد أن الشاعر الذي يقبل على النظم بغية معارضة أو اقتباس أو تضمين أو محاكاة شاعر آخر، لا يمكن أن يتجرد من تأثيره أو تأثير مشاعره، وبذلك تختفي الذاتية، ويختفي الإبداع والجدة والمعنى البكر والشعور الصادق، وإذا كان لهذه المحاكاة من فائدة، فلن تكون في إظهار خوالج النفس والشعور[7]، ولكن تكون في إظهار البراعة والقدرة على التناول في الصياغة والتعبير، شأن زعماء المدرسة التقليدية.

ومن الإنصاف أن نذكر أن رفيقاً لم يصل في مستواه الشعري إلى الدرجة التي يمكن أن يتساوى فيها مع كبار زعماء المدرسة التقليدية، وذلك في رأيي يرجع إلى أن تأثر رفيق بزعماء هذه المدرسة مثل شوقي وحافظ، أقوى ظهوراً من

3- حسن فتح الباب، سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1997، ص 239.

4- ينظر نفسه، ص 252.

5- د. شفيع السيد، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، مكتبة الآداب القاهرة ط الثانية 2009، ص 185.

6- نفسه ص 185.

7- ينظر نفسه ص 185 وما بعدها.

تأثره بنوابغ شعراء العرب القدامى، وإن كان رفيق قد تأثر ولو قليلا برواد الشعر القديم فقد عارض بعضهم وترسم معاني آخرين وضمن أشعارهم[8].

وليس في إثبات تأثر المهدوي بشعراء التراث بمستبعد وغريب، بل يظهر ذلك جليا في شعره من خلال التوافق الواضح بينه وبينهم.

فهي مدرسة الشاعر العربي التقليدي الذي كان يقف من التجربة موقف المصور الناقل المقلد أكثر مما يقبل إقبالا وجدانيا ويتفاعل ذاتيا في الأشياء التي يصنعها ويصورها.

لذا رأيت لزاما أن أنوه على تصويراته التي حاكى فيها الأقدمين، وأخذت حيزا كبيرا من معجمه الشعري والتي باتت قلقة في مواضعها، واهتمت بظاهر اللفظ ولم تبلغ الغاية الشعورية والذاتية.

فرفيق شاعر تقليدي اعتمد في تكوين تصويره الشعري على هدي ما جاءت به المدرسة التقليدية الحديثة، التي طبعته بطابعها، وذلك لاطلاعه على التراث الشعري القديم، وذلك لما نلحظه عليه من اقتباسات وتضمينات للشعراء القدامى.

وقد ولع المهدوي ولوعاً شديداً بشوقي، وذلك في قصائد عدة من قصائده، ومنها قصيدته (أطلت الهجر) التي يقول فيها[9]:

ألم تسمع من الحكم الغوالي لشوقي فهي ترشدك الصوابا
(وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا)
أريد الصدق منك وأنت أهل أعيذك أن تخادعني جوابا

فقد أعاد إلى أذهاننا ما جاء في قصيدة شوقي (بعد المنفي) الذي يقول فيها[10]:

8- ينظر د. محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في ليبيا العربية ، ص343.
9- الديوان ج 1 ص 182
10- الشوقيات ، شعر المرحوم أحمد شوقي ، دار الكتاب العربي بيروت ، د – ط ، د – ت ، ج 1 ، ص 65.

فأنــت أرحــتني مــن كــل أنــف كــأنف الميــت في النــزع انتصــابا
ومنظــر كــل خــوان يرانــي بوجــه كــالبغي رمــى النقابــا
ولــيس بعــامر بنيــان قــوم إذا أخلاقهــم كانــت خرابــا

وكذلك نراه في قصيدتي (الربيع) و(عام جديد) اللتين عارض بهما شوقي وجاءت على نفس رويه ووزنه في قصيدته (انتصار الأتراك) و(الربيع).

وقصيدة شوقي في الربيع مشهورة وقد عارضها كثير من الشعراء وتشتمل على الأغراض الآتية:

1. تحية الربيع والدعوة إلى شرب الراح فيه من البيت الأول إلى البيت العاشر
2. وصف الطيور وتغريدها على الأغصان 11-15.
3. وصف الربيع بأنه ملك النبات وتفتح الأزهار والأشجار 16-34.
4. وصف روعة الأفق وجمال الجو، وترقرق المياه في الجداول 35-45.
5. وختم القصيدة بتحية الربيع من 46 وما بعدها.

أما قصيدة المهدوي التي عارض بها قصيدة شوقي فتشتمل على الأغراض الآتية:

1. وصف الزمان وأعراس الطبيعة في الربيع 1-4.
2. وصف الخمر والدعوة إلى شربها 5-11.
3. تفتح الأزهار والورود والرياحين 12-19.
4. وصف نزهة في الربيع مع إخوان كرام 20-32.
5. الدعوة إلى انتهاز الربيع فرصة لتضييع الهموم والأحزان 33-42.

وتتشابه القصيدتان في:

1. الوزن والقافية وحركة حرف الروي.
2. في بعض الأوزان كتحية الربيع ووصف جماله، واعتدال الجو فيه، وتفتح الأزهار، وشرب الراح.
3. وصف المهدوي للدلو يشبه وصف شوقي للساقية.
4. كما تتشابه القصيدتان في الكثير من المعاني والألفاظ والأساليب.

يقول شوقي: آذار أقبل قم بنا يا صاح

وقول المهدوي: جاء الربيع فقم بنا يا صاح

وقول شوقي في إخوانه: غر كأمثال النجوم صباح

وقول المهدوي: في فتية غر الوجوه صباح

وتختلف القصيدتان فيما يلي:

1. في قصيدة المهدوي زيادة أغراض ليست في قصيدة شوقي، كتصويره نزهة في الربيع، وكالدعوة إلى انتهاز الربيع فرصة لتبديد الهموم والأحزان.
2. وفي قصيدة شوقي زيادة معان ليست في قصيدة المهدوي، كوصفه للطيور وتغريدها على الأغصان في الربيع، وكوصفه لقدم الخمر وأنها معتقة من عهد فرعون.
3. وشوقي أعذب لفظاً، وأعلى خيالاً، وأرق أسلوباً، وأكثر معان، وأفسح شاعرية، والمهدوي معارض ومقلد لشوقي.

بقول رفيق في قصيدته (الربيع)[11].

كالعرس فاهتبل السرور فربما (عادت أغاني العرس رجع نواح)

والشطرة الأخيرة قد أخذها من قول شوقي في قصيدته (خلافة الإسلام)[12]

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح

ويقول رفيق في قصيدته (عام جديد)[13]

فلا تصدق بأنباء ولا كتب (السيف أصدق أنباء من الكتب)

ويقول مصوراً بريطانيا في نفس هذه القصيدة

وها هي اليوم جدت في تلاعبها (تأتي جديداتها من أوجه اللعب)

11- ديوان رفيق ج 1 ص 87

12- الشوقيات ج 1 ص 105

13- الديوان ج 2 ص 147 - 152

ويقول مصورا الدستور في نفس هذه القصيدة أيضاً.

نلنا به الفتح والنصر المبين فقل (الله أكبر كم في الفتح من عجب)

وقال مخاطبا الشعب في نفس القصيدة أيضاً:

يا أيها الشعب لا تسكت على جنف طالب بحقك إن النصر بالطلب

(لا تلتمس غلبا للحق في فئة الحق عندهم نوع من الغلب)

والبيت الأول من هذه القصيدة لأبي تمام قوله[14]:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

مطلع قصيدة لأبي تمام قالها في مدح الخليفة المعتصم العباسي، بمناسبة فتح عمورية وفي البيت الثاني (وها هي اليوم جدت) ... الخ أخذه من قصيدة ابن الرومي قوله[15]:

ما أنس لا أنس هندا آخر الحقب على اختلاف صروف الدهر والعقب

يوم انتحتنا بسهميها مسالمة تأتي جديداتها من أوجه اللعب

وقوله الله أكبر ... الخ.

هذا مطلع قصيدة لشوقي تحت عنوان (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) يقول فيها[16]:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

وكذلك قوله (لا تلتمس):

14- الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام. قدم له ووضع هوامشه. راجي الأسمر. دار الكتاب العربي. ط. الثانية. 1994- ج2- ص32.

15- ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق، عبد الأمير علي مهنا، دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، ط الأولى، 1991، ج1- ص88.

16- الشوقيات. ج1- ص- 59.

فهي من نفس القصيدة السابقة لشوقي يقول فيها[17]:

لا تلـتمس غلبـا للحـق في أمـم الحـق عنـدهم معنـى مـن الغلـب

فرفيق قد غير لفظ (معنى) الأصلية ووضع مكانها كلمة (نوع) كما غير كلمة (أمم) ووضع مكانها كلمة (فئة) دون داع لذلك.

ففي هذه القصيدة نراه قد ضمن تصويراته من عدة شعراء من أبي تمام مرة وابن الرومي مرة ومن شوقي مرتين.

ولا يمكن لهذه الاقتباسات التي مرت بنا وغيرها أن تحقق تجربة الشاعر الحقيقية، بل ينشأ عن ذلك فقدان السيطرة على إجبار التجربتين أن تسيرا في نفس الموقف والمناخ التي سارت فيه نظيرتها، ويحدث التصادم و« تصيب القصيدة قارئها بعدوى مناخها »[18].

وقد كان رفيق يذهب إلى أوزان شوقي ومعانيه وآثاره ليستعين بها في كثير من تجاربه ولو كانت تجربة هزلية أو على سبيل المداعبة.

نرى ذلك في مداعبته لصديقه (أبي العون) التي تحدثنا عنها آنفا، والتي ذهب فيها إلى قصيدة أبي الهول لشوقي، وأخذ منها ما شاء أن يأخذه، مستعينا بنغمتها الموسيقية ورويها الرائق يقول أحمد رفيق مصورا صديقه أبا العون[19].

(أبـو العـون طـال عليـه العَصَـر وبلّـغ في الأرض أقصـى العمـر)

ومـا زال محتفظـا بالشـباب يفاخرنـا باسـوداد الشـعر

إلى أن يقول:

(تحـرك أبـا العـون هـذا زمـان تحـرك مـن فيـه حتـى الحجـر)

تقـدم إذا شـئت فينـا القضـاء (فلابـد أن يسـتجيب القـدر)

17- الشوقيات، ص59.

18- بير تولد بريخت، الفنون والثورة (ملاحظات حول العمل الأدبي) ترجمة إبراهيم العريس، دار ابن خلدون، بيروت، ط الأولى 1975، ص 9.

19- ديوان شاعر الوطن الكبير ج 2 ص 186 - 189.

(ولابـــد لليـــل أن ينجلـــي ولابـــد للقيـــد أن ينكســـر)

فهذا ترديد لما طالعنا به شوقي عندما تناول أبا الهول بالوصف، وأنطقه بأحداث التاريخ عبر الزمان حيث يقول[20]:

أبـا الهـول طـال عليـك العصـر وبلغـت في الأرض أقصـى العمـر

إلى أن يقول:

تحـرك أبـا الهـول هـذا زمـان تحـرك مـا فيـه حتـى الحجـر

ولم يكتف رفيق بما أخذه عن شوقي وإنما استعان بما أثر عن أبي القاسم الشابي في قوله[21]:

إذا الشـعب يومـا أراد الحيـاة فلابـد أن يسـتجيب القـدر

ولابـد لليـل أن ينجلـي ولابـد للقيـد أن ينكسـر

كما تتبع المهدوي آثار أبي حيان التوحيدي في معانيه ووزنه وقافيته. يقول المهدوي في قصيدته (أذكروني)[22].

صرت في جيحان كالمسجون سلواه العليل

ليس لي خل كأني بين أهليها أبيل

من رآني قال مجنون غريب أو عليل

فإليكم يا أحبائي وقد حار الدليل

اشتكى حزنا طويلا زاده شوق طويل

فالمهدوي قد تدارس التوحيدي شعره ونثره، ومنها قوله[23]:

20- الشوقيات ج1 ص132- 144.

21- ديوان أبي القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، شرحه وضبط نصوصه وقدم له د. عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د. ط- د - ت ، ص77.

22- الديوان ج 1 - ص 72

23- أبوحيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق وداد القاضي دار الثقافة بيروت، د- ط، 1973، الرسالة 12- ج1- ص80.

إن الغريب بحيث ما حطت ركائبه ذليل
ويد الغريب قصيرة ولسانه أبداً كليل
والناس ينصر بعضهم بعضا وناصره قليل

ومن النثر قوله: «وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة له على الاستيطان، وقد علاه الشحوب وهو في كن، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن، إن نطق نطق خزيانا متعطفاً، وإن سكت سكت حيراناً مرتعداً، وإن قرب قرب خاضعاً، وإن بعد بعد خاشعاً»[24].

فهذا نقل أمين من شخصية المهدوي التراثية لترسم لنا آثار وتجربة هذا الشاعر ففي قول أبي حيان: «أين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان» التي عبر عنها المهدوي بقوله: «صرت في جيحان كالمسجون» و«لا طاقة له على الاستيطان» التي عبر عنها المهدوي بقوله: (سلواه العليل من رآني قال مجنون غريب أو عليل) (وإن الغريب أينما حطت ركائبه ذليل) التي يكاد ينقلها المهدوي نصاً في قوله: (إن من يبلى بتغريب وإن عز ذليل) و(غلبه حزن) التي صاغها المهدوي بقوله: «اشتكى حزناً» فوقف المهدوي في هذه القصيدة عند حدود التجسيم والنقل الخارجي الأمين من غير موقع الشعر الذي نظمه.

ويقول المهدوي في قصيدته (من ليبيا إلى مصر) ومطلعها[25]:

يا مصر هذا أوان الجد فاتحدي وجاهدي في سبيل الحق واجتهدي

إلى أن يقول:

(لكم عزائم رأى لو رميت بها عند الهياج نجوم الليل لم تقد)

فهذا ترديد لما طالعنا به البحتري في قصيدة مطلعها[26]:

24- أبوحيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، ص80-81.
25- الديوان ج 2 - ص 258.
26- ديوان البحتري، شرحه الدكتور يوسف الشيخ محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط الأولى، 1987 ج 2 ص25.

إنـي تركـت الصـبا عمـدا ولم أكـد مـن غـير شـيب ولا عمـد ولا فنـد

إلى أن يقول:

لهـم عـزائم رأى لـو رميـت بهـا عنـد الهيـاج نجـوم الليـل لم تقـد

فأخذها المهدوي بتمامها دون حذف أو زيادة، سوى نقلها من ضـمير الغيبـة إلى الخطاب، حيث يقول في قصيدته (في سبيل الحق) التي مطلعها[27]:

لم أبتـدئ بعـد في نقـدي وإنكـاري لمـا أشـاهد مـن ظلـم ومـن عـار

إلى أن يقول مضمنا بيت ابن زيدون:

(زاد شـــهي أكلنـــا مـــن أطايبـــه بعضـاً وبعـضٌ صـفحنا عنـه للفـار)

ويقول ابن زيدون[28]:

أكـل شـهي أصـبنا مـن أطايبـه بعضـاً وبعضًـا صـفحنا عنـه للفـار

ويقول رفيق[29]:

لـك الحـب محضـاً والثنـاء عقيـدة (وكل امرئ مـثني عليـه بمـا يبلـي)

وقد ضمن عجز بيته قول جرير في قصيدة مطلعها[30]:

عـوجي علينـا واربعـي ربـة البغـل ولا تقتلـيني لا يحـل لكـم قتلـي

أبـا خالـد أبليـت حزمـا وسـؤددا وكـل امـرئ مـثني عليـه بمـا يبلـي

تلك هي آية المهدوي في تضميناته واقتباساته اتخذها كمـا يـزعم الأقـدمون أداة لإظهـار البراعـة في منافسـة كبـار الشـعراء، لأن المعارضـة كانـت غرضـا مـن أغراض الشاعر الأساسية[31].

27- الديوان ج 2 ص 35.

28- ديوان ابن زيدون ، ص288.

29- الديوان ج 2 ص32.

30- ديوان جرير ، دار صادر بيروت لبنان ج 2 ص369.

31- ينظر الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، مرجع سابق، ص352.

ويقول المهدوي في قصيدته من ليبيا إلى مصر، في بيتين متثاليين وقد ضمن فيها لثلاثة من الشعراء. النابغة، وابن رشيق، والمتنبي[32].

تقوضت دولة المستعمرين وقد (أخنى عليها الذي أخنى على لبد)
فلا يهولنكم من (شحمه ورم) (فإنه الهر يحكي صولة الأسد)

عجز البيت الأول من قصيدة للنابغة الذبياني[33].

أضحت خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنا على لبد

و(شحمه ورم) أخذها من قصيدة للمتنبي قوله[34]:

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وعجز البيت الأخير من قصيدة لابن رشيق القيرواني قوله[35]:

مما يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فنرى المهدوي لا يندفع إلى تصويره بوحي من عقيدته التي يعانقها، ولكنه يرجع إلى الفكرة العامة التي يؤمن بها المجتمع حتى ولو كانت حكم وأقوال لشعراء التراث، فهو في تصويره محاكيا لمن تقدمه. فنراه في قصيدته (عام جديد) يقول[36]:

مازال منا على المهدى متكل يراقب العجب المزعوم في رجب
فلا تصدق بأنباء ولا كتب (السيف أصدق أنباء من الكتب)

32- الديوان ج 2 ص 261.
33- ديوان النابغة الذبياني.
34- ديوان أبي الطيب المتنبي شرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، الناشر دار المعرفة بيروت، أعيد طبعه بالأوفست، د . ط ، 1978، ج 4 ص 215.
35- ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه ورتبه، د. عبد الرحمن باغي، دار الثقافة بيروت، د. ط، د. ت ص 59
36- الديوان ج 2 ص 261.

إلى أن يقول:

وهـا هـي اليـوم جـدت في تلاعبهـا (تأتي جديداتها مـن أوجـه اللعـب)

فكل هذه الأبيات أخذها المهدوي من أبي تمـام لفظـا ومعنـى في قصـيدته (فتح عمورية) والتي مطلعها[37].

السـيف أصـدق أنبـاء مـن الكتـب في حـده الحـد بـين الجـد واللعـب

أما قوله:

يراقب العجب المزعوم في رجب

فأخذه أيضاً من قول أبي تمام في نفس هذه القصيدة.

عجائبـاً زعمـوا الأيـام مجفلـة عـنهن في صـفر الأصـفار أو رجـب

فإن المهدوي في هـذه الأبيـات أخـذ مـن أبـي تمـام أخـذاً صـريحاً بـاللفظ والمعنى.

فرفيق يعلم أن أبا تمام ممن كثر البديع في شعره، ولكن الشعراء في العصـر الحديث لا يعولون على البـديع كـثيرا، فعـرج المهـدوي علـى تصـوير المسـتعمر ليخيل إليك أنه يصطنع أسـلوبا مـن أسـاليب ذلـك البـديع، ألـيس البـديع مخاتلـة وخداعاً ولعباً، وهل تكون سياسة المستعمر شيئا آخـر غـير هـذا الأسـلوب، يقـول رفيق متلاعباً بالبديع محاكيا أبا تمام[38]:

وهـا هـي اليـوم جـدت في تلاعبهـا تـأتي جديـداتها مـن أوجـه اللعـب

منـت علينـا بيسـرها لتأخـذ مـا أعطـت بيمنـى يـديها أخـذ مسـتلب

كأننـا قـد أخـذنا وهـي قـد وهبـت وفي الحقيقـة لم نأخـذ ولم تهـب

أليس هذا كله عبثاً وتذكرة بما قاله أبو تمام في بائيتـه المشـهورة، وهـل منـا

37- ديوان أبي تمام ، ج1، ص40.

38- الديوان ج 2 ص 261.

من نسي أبا تمام في قوله[39]:

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

ويقول رفيق مخاطبا إيطاليا[40].

وليس عليك فيما بعد عار إذ أبقى الحياة لك الإسار
(فما في صولة الأرباب عيب ولا في ذلة العبدان عار)

فهذا ما قاله المتنبي في قصيدة مطلعها[41]:

طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار
وما في سطوة الأرباب عيب ولا في ذلة العبدان عار

فغيرها المهدوي (صولة) بدلا من (سطوة)

وقال في نفس هذه القصيدة[42]:

أحبك رغم من ضحكوا وقالوا (كلام الليل يمحوه النهار)

إما أن يكون شاعرنا قد أخذ هذا اللفظ من مصعب الماجن المتوفى 250 هـ في قوله[43]:

فلما جئت مقتضيا أجابت كلام الليل يمحوه النهار

أو من أبي نواس المتوفى 198 في قوله[44].

39- ديوان أبي تمام، مرجع سابق، ص41.
40- الديوان ج 3 / ص 31.
41- ديوان المتنبي ج 2 ص 108.
42- الديوان ج 3 / ص 29.
43- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، دار القلم، بيروت لبنان، د – ط، د – ت، ج4، ص105.
44- نفسه، ص105.

فقلــت الوعــد ســيدتي فقالــت كــلام الليــل يمحــوه النهــار

ويضمن في نفس هذه القصيدة أيضا قول المتنبي[45]:

ذكرنــا عهــدك الماضــي فقلنــا (وفي الماضــي لمــن بقــي اعتبــار)

يقول المتنبي[46]:

ولــو لم تبــق لم تعــش البقايــا وفي الماضــي لمــن بقــي اعتبــار

ويقول المهدوي في قصيدته (في سبيل الحب)[47]

تباينــت الآراء فيــه مشــاربا (فقلت وأي النـاس تصـفوا مشـاربه)

إلى أن يقول:

ولم يتلكــأ مثــل مــن كــان قبلــه (يغالب فيه الشـوق والشـوق غالبـه)

ترفــع حتــى مــا يقــال لفعلــه (كفـى المـرء نـبلا أن تعـد معائبـه)

عجـز البيـت الأول « فقلـت وأي النـاس ... » مـن قصـيدة لبشـار بـن بـرد مطلعها[48]

جفــا ودُّه فــازور أو مــل صــاحبه وأزرى بــه أن لا يــزال يعاتبــه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القـذى ظمئـت وأي النـاس تصـفو مشـاربه

إذا كنــت في كــل الــذنوب معاتبــا صــديقك لم تلــق الــذي لا تعاتبــه

أما عجز بيتـه الثـاني « يغالـب فيـه الشـوق ... » فقـد أخـذه مـن المتـنبي في قوله[49]:

45- الديوان ج 2 ص 29.

46- ديوان المتنبي ج 2 ص 108.

47- الديوان ج1 ص99.

48- ديوان بشار بن برد ، جمعه وحققه السيد بدر الـدين العلـوي ، دار الثقافـة بـيروت 1981 / ص 44 - 45.

49- ديوان المتنبي ج 2 ص 263.

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام في بأن أرى بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرب

وعجز بيته الأخير «كفى المرء نبلا» فأخذه من الصنوبري المتوفى 334، في قوله[50]:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وتظهر هذه المتابعة الجلية لهؤلاء الشعراء من اقتباس وتضمين وترسم للمعاني، الذي وقف المهدوي منها عند السطح الخارجي للتصوير، ولم يتعمق بواطن التجربة، فجاءت تصويراته ترديدا ومحاكاة للصيغ القديمة ليس فيها أي إبدع أو جودة، فقد استعان بهذه الأعجاز ليختم بها أبياته ويريح نفسه العناء والكد، ونحن حين نحللها نصادف إعياء واضحا وجهدا كبيرا يبذله الشاعر حين يستوفي نقص أبياته من هذه الأعجاز المقتبسة، ولم ينته رفيق عن تقفي أثر المتنبي حتى أخذ منه بيته الذي بات قلقاً في موضعه في قصيدته: (الحظ المظلوم)[51]

ومن مخفف قانون الجزاء لهم والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وخيزران غليظ ريحه عبق في كف أروع في عرنينه شمم

فقد ضمن عجز بيته الأول بتمامه من قول المتنبي[52]

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويقول المهدوي في وصف الربيع[53]

خفت فكادت أن تطير بكأسها (وكذا الجسوم تخف بالأرواح)
لا فضة ذهب بل الحلب الذي (في يوم عرس من خدود ملاح)

50- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم للطباعة، تحقيق د. عمر الطباع، ط الأولى 1999 ، ج1 ص368.
51- الديوان، ج1، ص109.
52- ديوان المتنبي، مرجع سابق، ج4، ص215.
53- الديوان ج 1، ص85.

فقد ضمن رفيق عجز بيته الأول من قول حمدون بن الحاج السلمي قوله[54]:

أفنى جسوما وهو أرواح لها وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وعجز البيت الثاني إشارة إلى قول حافظ إبراهيم[55].

خمرة قيل إنهم عصروها (من خدود الملاح في يوم عرس).

إلا أن رفيقاً غير الترتيب فجعل التالي أول والأول تالي.

ويقول المهدوي في قصيدته (صحيفة الوطن)[56].

وغر قوما سراب كاد يحسبه ظمآنه لجة تجري بها السفن

كوني الدليل فقد ظلت بنا طرقٌ (وغيب الرَّشَد حتى خفَتِ الرُّزَن)

فقد اقتفى أثر أبي العلاء المعري في قصيدة مطلعها[57].

أودى السرور بدار كلها حزن فلا تبالي على ما صابت المزن

قد غلب المين حتى الصدق مستتر وغيب الرشد حتى خفت الرزن

ولم يكتف رفيق بالجزء من البيت أو بالبيت كاملا حتى تجاوزه إلى البيتين فتابع العباس بن الأحنف في هذين البيتين. قائلا[58]:

(ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان برقة من سكان جيحانا)

(عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف الهجر ألوانا)

54- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانه، ط الثانية، د – ت، ج2، ص33.

55- ديوان حافظ إبراهيم، طبعه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري ، المطبعة الأميرية القاهرة الطبعة السابعة. 1955، ج 1 ص 234.

56- الديوان ج 2 ص53.

57- ابن قتيبة ، مرجع سابق، ج1 ص212.

58- الديوان ج 1 ص 150.

ويقول العباس بن الأحنف[59]:

ما أقدر الله أن يدني على شحط جيران دجلة من جيران جيجانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف الهجر ألوانا

فقد أبدل المهدوي كلمة جيران إلى سكان، ودجلة إلى برقة، وجيجانا إلى جيحانا فغير أسماء المواضع واكتفى بالباقي على صورته.

كما تظهر متابعة المهدوي أيضاً في قصيدته (في سبيل الحق) وقد ضمن فيها بيتين متتاليين، أحدهما عجز البيت الأول وهو لابن زيدون، والثاني لأبي ذؤيب الهدلي. يقول المهدوي[60]:

قيل الخفافيش قد قامت تناوئني (قلت الفراشة قد تدنوا من النار)
(تعدو الذئاب على من لا سلاح له وتتقي صولة المستأسد الضاري)

ويقول ابن زيدون في الوزير ابن عبدوس منافسه في حب ولادة بنت المستكفي الأندلسية، من قطعة له مطلعها[61]:

أكرم بولادة ذخرا لمذخر لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا أبا عامر أضحى يلم بها قلت الفراشة قد تدنوا من النار

أما البيت الثاني فهو لابن زيدون قوله[62]:

تعدو الذئاب على من لا سلاح له وتتقي صولة المستأسد الضاري

ويبدو من استخدام المهدوي لهذه التضمينات الموروثة، أنه مجرد مجارات إلى التراث بدون ما يكون في طبيعة الرؤية الشعرية ما يبرر ذلك.

ويقول المهدوي في قصيدته (صحيفة الوطن)[63]

59- ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت- د. ط- 1980 ص 297.
60- الديوان ج 3 ص 57.
61- ديوان ابن زيدون ، ص 288.
62- نفسه ص140.
63- الديوان ج 2 ص49.

قل للذين على الحرباء قد درسوا فن التلون إن الناس قد فطنوا
ثوب الخداع وإن أخفى إذا بزغت أشعة الحق أفشى سره البدن
(رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن)

فهذا ترديد لما طالعنا به المتنبي في قوله[64]:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن
رأيتكم لا يصون العرضَ جارَكم ولا يدر على مرعاكم اللبن

وقد يأخذ رفيق المعنى دون اللفظ وهذا كثير في شعره ومنه قوله[65]:

وان عفوك نوع من عقوبتهم والعفو أقتل للأحرار لو علموا

وهذا ما أكده المتنبي في قوله[66]:

ما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقد خضع رفيق المهدوي في تكوينه الشعري لتأثير حافظ إبراهيم أيضاً وذلك في نسجه قصيدة كاملة على غرار قصيدته، وأبرز فيها كثيراً من العيوب الاجتماعية في المجتمع الليبي، على نحو ما فعل حافظ في قصيدته، وبمقاربة بين القصيدتين نكشف عن أن رفيقاً تقفي أثر حافظ في الوزن والقافية والمعاني، ومن السهل على القارئ الذي أتيح له أن يطلع على القصيدتين أن يكشف التأثير الذي أضفاه حافظ ابراهيم على المهدوي حيث يقول في هذه القصيدة[67]:

كادت تطير بأضلعي أشواقي يوم الفراق فهل يكون تلاقي
ودعته والله يشهد أنني ودعت راحة قلبي الخفاق
يا راحلا بالصبر لم يترك لنا غير الحنين وزفرة المشتاق

64- ديوان المتنبي مرجع سابق. ج 2 ص 236.
65- الديوان ج 1 ص 109.
66- ديوان المتنبي مرجع سابق ج 1 ص 95.
67- الديوان ج 1 ص 17 - 18.

ذكـــراك مثـــل النـــار في أشـــواقنا تـــزداد بالتحريـــك في الإحـــراق
(لهفـــي عليـــك متـــى أراك منعمـــاً يحمي كـريم حمـاك شـعب راقـي)
لهفـــي عليـــك متـــى أراك مبرئـــا مـــن ســـوء عـــادات وشـــر نفـــاق
ظلموك باسم الـدين جهـلا مـا لهـم علـــم ســـوى التقليـــد والإغـــراق

ويقول حافظ إبراهيم[68]:

كـــم ذا يكابـــد عاشـــق ويلاقـــي في حـــب مصـــر كـــثيرة العشـــاق
إنـــي لأحمـــل في هـــواك صـــبابة يا مصر قـد خرجـت عـن الأطـواق
لهفـــي عليـــك متـــى أراك طليقـــة يحمـي كـريم حمـاك شـعب راقـي
كلـف بمحمـود الخصـال متـيم بالبـــذل بـــين يـــديك والإنفـــاق

إلى أن يقول:

كـــم عـــالم مـــد العلـــوم حبـــائلا لوقيعـــــة وقطيعـــــة وفـــــراق
وفقيـــه قـــوم ظـــل يرصـــد فقهـــه لمكيـــــدة أو مســـــتحل طـــــلاق
يمشـي وقـد نصـبت عليـه عمامـة كـــالبرج لكـــن فـــوق تـــل نفـــاق

ويقول المهدوي في قصيدته من رفيق إلى توفيق[69]:

(مـا ضـاق فضـل الله عـن متعفـف لكـــن أخـــلاق الرجـــال تضـــيق)

وهذا البيت قد أخذه من بشار بن برد من قصيدة مطلعها[70].

خليلـــي إن العســـر ســـوف يفيـــق وإن يســـــارا في غـــــد لخليـــــق
ولا ضـاق فضـل الله عـن متعفـف ولكـــن أخـــلاق الرجـــال تضـــيق

ويقول رفيق في قصيدة له تحت عنوان (إلى قومي) ومطلعها[71]:

68- ديوان حافظ إبراهيم ج 2 ص 89.
69- الديوان ج 2 ص 120.
70- ديوان شعر بشار بن يرد. ص 264.
71- الديوان ج2، ص 267.

وقد كنت في كل الخطوب تقول يقول أناس مالك اليوم ساكت
نطقت ولم ينسب إلي خمول فلو أن قومي أنطقتني رماحهم

وهذا ما قاله عمر الزبيدي في قصيدة له مطلعها[72]:

ومرد على جرد شهدت طرادها قبيل طلوع الشمس أو حين ذرَّت
فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

ومن هنا برزت لنا صفة الشاعر «الذي لا يعطيك من نفسه، وإنما هو يعيش على الفكرة الشائعة، ويتفاعل معها فينظمها ولا تجد فيها شيئا يرتفع على الأفكار الرائجة بين الناس»[73].

لقد بات من المسلم به أن الأسلوب الشعري الذي اتخذ منه الشاعر المهدوي منهجا له، هو ذلك الأسلوب الذي يقوم عليه كيان المدرسة التقليدية الحديثة، فقد تكونت شاعريته على أصداء هذه المدرسة، واتخذ منها ومن القديم مثله الأعلى في صياغة القريض، وتجلى هذا فيما يمكن أن نقول عنه إن الشطرات المقتبسة أو الأبيات المضمنة كانت في غالب الأحيان مفتاحا لقصيدة الشاعر، ومحركا لمشاعره، ومنشطا لموهبته، بحيث جاءت هذه القصائد التي تحمل مثل هذه الاقتباسات، صدى للقصائد التي اقتبس منها، وإن لم تصل إلى جودتها الفنية، فهي كما قال عبد القاهر الجرجاني: «ومن كان هذا سبيله كان بمعزل من أن يكون به اعتداد، وأن يدخل في قبيل ما يفاضل فيه بين عبارتين، بل لا يصح أن يجعل ذلك عبارة ثانية، ولا أن يجعل الذي يتعاطاه بمحل من يوصَف بأنه أخذ معنى ذلك، لأنه لا يكون صانعاً شيئاً يستحق أن يدعى من أجله واضع كلام ومستأنف عبارة وقائل شعر»[74] ويضيف قائلاً: «فالذي يجئ ولا يغير شيئا من هذا الذي كان كلاما وشعراً، لا يكون قد أتى بكلام ثان وعبارة ثانية، بل لا يكون

72- ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د - ط 1925، ج 2، ص164.
73- أحمد الفيتوري، في ذكرى رفيق ، ص59.
74- دلائل الإعجاز، مرجع سابق ص 487.

قد قال من عند نفسه شيئاً البتة»[75] بل اعتبر الثاني محاك للأول فلا فضل ولا مزية في ترديد الكلام وإعادته «فليس لمن يتصدى لما ذكرنا من أن يعمد إلى بيت فيضع مكان كل لفظة منها لفظة في معناها، إلا أن يسترك عقله ويستخف، ويعد معد الذي حكي أن قال: إني قلت بيتا هو أشعر من بيت حسان، قال حسان[76].

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقلت:

يغشون حتى ما تهر كلابهم أبداً ولا يسلون من ذا المقبل

فقيل هو بيت حسان، ولكنك قد أفسدته»[77].

إلا أن المهدوي لا يدعي السبق، كما لا يدعى نسبة هذا القول إليه، وإنما يصر المهدوي على أن يضع مقتبساته وتضميناته داخل قوسين في كثير من الأحيان، ولعل هذا الصنيع جاء تلبية منه لمطالب الأمانة العلمية والأدبية، وليبرهن لنا على مقدرته للتأليف بين المتباعدين، ومحاكاة التراث القديم، شأنه في ذلك شأن أستاذه شوقي الذي عارض أغلب القصائد الشهيرة، فأراد المهدوي أن يعيش تلك الفترة التي عاشها، ويقرن نفسه به، وبالرغم من كثرة التضمينات والاقتباسات باللفظ والمعنى، وبالمعنى دون اللفظ، نستخلص أن المهدوي شاعر تقليدي، اعتمد في تكوين تصويره الشعري على هدي ما جاءت به المدرسة التقليدية الحديثة، التي طبعته بطابعها، وهو مع اطلاعه على التراث الشعري القديم، ومع ما نلاحظه عليه من اقتباسات وتضمينات لأعلام الشعراء القدامى التي قد تربك التجربة؛ فإن لديه نماذج تصويرية مكتملة تنقل القارئ أو السامع إلى الجو الذي دفعه إلى الإعراب عن أحاسيسه ومشاعره تجاه تصوير حدث من الأحداث أو رسم مشهد من مشاهد الوجود، أو موقف من المواقف التي هزته وأثرت فيه تأثيراً قوياً،

75- دلائل الإعجاز ص 488.

76- د. سيد حنفي حسنين، ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق. دار المعارف القاهرة 1983 ص 123.

77- دلائل الإعجاز ص 488.

كمواقفه الوطنية في المبحث الذي مر بنا آنفاً، وكما توجد بطبيعة الحال بعض النماذج التصويرية الضعيفة التي لا تستطيع الثبات والصمود أمام النظرة الفاحصة المتأملة.